الأهرام

المصدر: الراية

التاريخ: ٢١ فبراير ٢٠٠٥

الصيحة الأخيرة لرفيق الحريري

بقلم: د. سعد الدين إبراهيم كاتب مصري

لماذا حامت الشبهات حول النظام السوري في اغتيال الزعيم اللبناني رفيق الحريري، رغم إدعاء الفلسطيني أحمد تيسير أبو عدس، أنه المسؤول عن الاغتيال، ممثلاً لتنظيم يطلق على نفسه «جماعة النصرة والجهاد» في بلاد الشام»؟

هناك خمسة أسباب على الأقل وراء اعتقاد اللبنانيين ومعظم الرأي العام العالمي أن النظام السوري للرئيس بشار الأسد، ضالع في حادث الاغتيال حتى قمة رأسه:

● السبب الأول، هو سوابق مماثلة مع معارضين للوجود السوري في لبنان، وهو وجود عسكري وسياسي ومخابراتي، بدأ أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، التي انفجرت في ربيع ١٩٧٥، واستمرت حتى ١٩٩٠. وكان هذا الوجود السوري في البداية بناء على دعوة الرئيس اللبناني، سليمان فرنجية، الذي أفلتت من يديه زمام الأمور. فأرسل الرئيس السوري حافظ الأسد، وقتها «١٩٧٦» أكثر من ثلاثين ألف جندي، استطاعوا إلى حد ما استعادة بعض الأمن وبعض النظام. ولكن مع توصل اللبنانيين لمصالحة وطنية عام ١٩٨٩/١٩٩٠، بموجب اتفاق الطائف، بدأ اللبنانيون يتبرمون من الوجود السوري في بلادهم، ويطلقون عليه وصف «الاحتلال». ولوحظ أن كل من عبر عن امتعاضه من الوجود السوري، بين الزعماء اللبنانيين، كان مصيره الاغتيال أو محاولة الاغتيال. وقد بدأ هذا المسلسل مبكراً باغتيال الزعيم اللبناني الكبير كمال جنبلاط في أواخر السبعينيات، ثم الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل في أوائل الثمانينات، ومؤخراً وزير لبناني مرموق هو مروان حمادة، الذي جرت محاولة على حياته، مشابهة تماماً لخطة اغتيال الحريري. وكان مروان حمادة قد استقال احتجاجاً على الضغط السوري على البرلمان اللبناني لتمديد رئاسة أميل لحود، لثلاث سنوات إضافية، بالمخالفة للدستور، الذي يحدد شغل المنصب لمدة واحدة، هي ست سنوات. وكان رفيق الحريري رئيساً للوزراء، فاستقال بدوره، وانضم للمعارضين لاستمرار الاحتلال السوري.. فطاله ما طاله المعارضين السابقين.

● السبب الثاني: للارتياب في النظام السوري، هو حجم وطريقة تنفيذ الاغتيال لا تقوى عليه إلا أجهزة على كفاءة عالية ولديها موارد ضخمة. وهذان الشرطان يتوفران لدول أخرى في المنطقة إلى جانب سورياً- وفي مقدمتها إسرائيل وليبيا وإيران، وكذلك لتنظيمات عقائدية مسلحة مثل القاعدة، وحزب الله، وحماس. وهذه جميعاً لها سوابق في هذا النوع من العمليات الانتحارية الفدائية. ومع ذلك لم تتجه أصابع الاتهام إلا لسورية. وكان بعض ما قيل لاستبعاد الآخرين هو أنه ليس لهم مصلحة في اغتيال رفيق الحريري.

● السبب الثالث: للارتياب في النظام السوري هو أنه الطرف الفاعل الوحيد، الذي له قوات «١٥ ألفاً» وعملاء وأعوان في لبنان. كما أن سوريا هي التي قامت ببناء وتدريب الجيش اللبناني وأجهزة الأمن والمخابرات. وبالتالي فهي الأقدر على الاستراق، ونقل وإخفاء هذه الكمية الضخمة من المتفجرات والتي قدرت ما بين خمسة وعشرة أطنان من الديناميت القادر على اختراق السيارات المصفحة. وقد قيل إن سيارات رفيق الحرير الخاصة لم تكن

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

فقط مصفحة، ولكن أيضاً مزودة بأجهزة للتشويش على وإفساد مفعول أجهزة التفجير عن بعد. ولا يمكن الحصول على أجهزة مضادة إلا لدولة لديها امكانيات مادية واستخباراتية ضخمة وخططت لمثل هذه العمليات.

● السبب الرابع، تراكم الضغوط على النظام السوري، من ذلك التوافق الفرنسي-الأمريكي، النادر الحدوث في السنوات الأخيرة، على تحرير لبنان من الاحتلال السوري. وسعيهما لاستصدار قرار من مجلس الأمن «رقم ١٥٥٩» في الخريف الماضي، والذي يدعو إلى جلاء كل القوات الأجنبية من لبنان، وعدم تدخل أية دولة في شؤونه المحلية. وكان الأكثر حرصاً على جلاء السوريين هم «الموارنة» المسيحيون، ثم انضم إليهم «الدروز» المسلمون. وظل بقية المسلمين «السنة» و«الشيعة» متمسكين بتواجد ما لسورية. ولكن المسلمين «السنة»، وفريقاً كبيراً منهم على الأقل يقوده رفيق الحريري انضم مؤخراً إلى الموارنة والدروز، ولم يعد في الساحة اللبنانية من يجهر بالدفاع عن الوجود السوري في لبنان إلا زعماء الشيعة، وخاصة حزب الله، القريب جداً من إيران، والتي هي الحليف الاستراتيجي الوحيد للنظام السوري في المنطقة. وربما اعتقدت سورية، او بالأحرى النظام البعثي الحاكم فيها، إن اغتيال رفيق الحرير يمكن أن يشعل حرباً أهلية جديدة، تعطي سورية ذريعة الاستمرار في لبنان لاستعادة الأمن والنظام. فقد كان ذلك هو سبب وجودها هناك في المقام الأول «١٩٧٦» أي منذ حوالي ثلاثين سنة. أي أن سوريا تواجه الضغوط الدولية عليها، كما تتصاعد المطالبات الداخلية للإصلاح، بالدخول في مغامرة إقليمية محكومة.

● السبب الخامس: هو خوف النظام البعثي المستبد في سورية من الحصار الديمقراطي. فقد رأى مؤخراً أن العراق وفلسطين تشهدان تحولاً ديموقراطياً، رغم الاحتلال. وقد شهد المراقبون الدوليون أن الانتخابات التي تمت في البلدين خلال شهر يناير ٢٠٠٥، كانت على درجة عالية من الشفافية والنزاهة، ولم يفز فيها أحد بالنسب المئوية الهزلية المضحكة «٩٩,٩٪» مثلما يحدث في سورية ومصر وعراق صدام حسين. وكانت لبنان مقبلة على انتخابات نيابية في ربيع ٢٠٠٥. كان الحريري وحلفاؤه يستعدون لخوضها ببرنامج يقوم على استعادة استقلال لبنان كاملاً «أي خروج الاحتلال» وبناء اقتصاده وتحديث كل مؤسساته. وكانت استطلاعات الرأي العام تشير إلى احتمال فوز تكتل الحريري بأغلبية مريحة «٦٠٪» . وكان من شأن ذلك توجيه صفعة موجعة لسورية وحلفائها. فاستبق النظام السوري الأمر بالتخلص من الحريري. أو هكذا يعتقد اللبنانيون.

لقد كان رفيق الحريري شخصية خلافية، ولكنه كان عملاقاً في سلوكه الخاص والعام. بدأ حياته مهندساً، ثم مقاولاً في السعودية في أواخر الستينات. وتزامن ذلك مع الطفرة النفطية، فأصبح مليونيراً، ثم بليونيراً. عاد إلى لبنان بعد الحرب الأهلية، وأخذ على عاتقه أن يعيد تعمير لبنان وإعادة بناء قلب العاصمة بيروت. أيده كثيرون وأعجبوا به. وعارضه كثيرون ومقتوه. ولكن الجميع كانوا يعملون له حساباً يسيراً أو عسيراً. وكانت آخر أحلام رفيق الحريري هي تحرير التراب اللبناني. ولم يعش الرجل ليرى تحقيق حلمه. ولكن طوفان الحزن والغضب الذي اجتاح لبنان، وتردد صداه في كل العواصم العالمية قد يجبر النظام السوري أن يحمل عصاه ويرحل من لبنان. ويكون رفيق الحريري، حتى بتعرضه للاغتيال، قد أطلق صيحته الأخيرة في تحرير لبنان. رحم الله الرجل وعاش لبنان.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية